القديسة مريم

للقديس امبروسيوس

" فلننظر إلى استجابة العذراء لتحية الملاك ، فلننظر إلى العذراء فى تواضعها ، و لنتعرف على العذراء من اقوالها ، ولنعترف بعمق سرها ...

هذه هي في الواقع شيمة العذراء : الحياء و الهيبة من كل محادثة خاصة مع انسان , فليت النساء يتعلمن محاكاتها فى هذا الجانب من التواضع . لقد جاءها الملاك وهي في عزلتها فقط , حتى لايراها أحد قط ، و فقط حينما كانت وحيدة بلا أية صحبة أو أى شاهد ، حتى لا تتدانى إلى المحادثات التافهة ، حياها الملاك . ألا فلتتعلم العذارى تجنب المحادثات الهزلية . لقد تهيبت مريم من تحية الملاك وفكرت ما عسى ان تكون هذه التحية . وكلمته باتضاع لأنها كانت خائفة , وبفطنة لأنها كانت منذهلة من هذا الأسلوب الجديد للبركة , الذي لم يسمع به قط , ولم يُخبر به أحد حتى ذلك الوقت . فإنه لمريم فقط كانت هذه التحية مذخورة , وهي الوحيدة فقط التي دعيت بحق " ممتلئة نعمة " , إذ انها كانت الوحيدة التي اقتنت هذه النعمة التي لم يقبلها أحد من قبل , أي ان يملأها خالق النعمة .

انظروا إلى التواضع ! انظروا إلى التكريس ! إنها تقول عن نفسها : " خادمة الرب " ، هذه المختارة لتكون أمه , لم تتشامخ بهذا الوعد غير المنتظر . وفي نفس الوقت , وبقولها " عبدة " , لم تطلب أي امتياز يليق بمثل هذا الوعد , بل أكملت ما كان ينبغي أن تتممه , لأنه لاق بها ان تكون نموذجاً للاتضاع بعدما ولدت الوديع المتضع .

هوذا نحن نجد فى العذراء مثال الطاعة و الإرادة الصالحة و الاستعداد للخدمة و الاشتياق المستجاب .

كما كانت مريم سريعة إلى التصديق حتى في الظروف غير العادية , لأنه هل يوجد شئ أكثر تبايناً من الروح القدس والجسد ؟ وهل يوجد شئ أكثر فرادة من أن عذراء تحبل بخلاف الناموس والتقاليد ؟ ورغم الحياء الذي يعتبر أغلى ما يشغل بال عذراء , فقد تميز موقفها حتى عن زكريا واليصابات وإبراهيم وسارة قديماً . فليس غريباً , إذن , أن الرب

حينما أراد أن يفدي العالم , بدأ عمله بمريم : هذه التي بواسطتها جاء المسيح ليتمم الخلاص للجميع , وكانت هي اول من جنى ثماره من ابنها .

من البديهي أن جميع الذين يريدون أن تصدق أقوالهم , يهيئون أسباب هذا التصديق . وهكذا فالملاك الذي أعلن لمريم هذه الاسرار وهي عذراء , أورد لها مثلاً عن أمومة امرأة سابقة لها وهي مسنة وعاقر , مظهراً بذلك أن الله يستطيع أن يعمل ما يسر به . وحالما قبلت مريم هذه البشارة , ليس عن نقص إيمان بالنبوة , ولا عن غير يقينية هذه البشارة , ولا عن شك في أمر سابقتها اليصابات , بل في تهليل اشتياقها , ولكي تكمل واجباً عليها بكل اجتهاد وفرح : " قامت مريم ... وذهبت بسرعة إلى الجبال " (لو1:39) . و هل كان لها , منذ ذلك الحين ، و هى ممتلئة بالله ، إلا أن تنهض بسرعة نحو الأعالي ؟!

ألا ترين أيتها العذارى رقة مريم ؟ فلنتعلم منها التواضع ، إنها تأتى كأم إلى أمها ، كصغيرة إلى من هى أكبر منها ، و كانت هى السباقة لتحيتها . و يليق هكذا فى الواقع ، أنه كلما كانت العذراء عفيفة ، كلما كانت أكثر اتضاعا و كلما تعلمت كيف تحترم من هم أكبر منها . إذن ، فليملك الاتضاع كل من يريد أن يشهد للعفة .

وهناك أيضاً دافع تقوي بل وتعليم عقيدي , فيجب ملاحظة كيف أن الكبير يأتي لمساعدة الصغير , مريم إلى اليصابات , المسيح إلى يوحنا , وعما قليل يأتي الرب ايضاً إلى معموديته ليكرسها . وكل ما حدث في هذه الزيارة يشهد لبركات مجئ مريم وحضور الرب , لأنه " لما سمعت اليصابات سلام مريم ارتكض الجنين في بطنها , وامتلأت اليصابات من الروح القدس " (لو1 : 41) . فلنلاحظ اختيار وتحديد الكلمات , فقد سمعت اليصابات الصوت أولاً ولكن يوحنا أحس بالنعمة أولاً : فهذه سمعت تبعاً للترتيب الطبيعي , أما ذاك فتهلل تحت تأثير السر . لقد لمح وصول مريم و أدرك حضور الرب . المراة رأت المرأة , أما هو فقد ادرك الرب . انهما يتكلمان بالنعمة , ويتحققانها داخلياً ويبلغان إلى سر الرحمة لصالح أمهاتهما . وبمعجزة مزدوجة تكلمت الوالدتان بإلهام ابنيهما . فالطفل ارتكض بابتهاج والأم امتلأت ... والأم لم تمتلئ قبل ابنها , بل إن الابن حالما امتلأ بالروح ملأ أمه .

لقد ارتكض يوحنا بابتهاج , وروح مريم تهلل ايضاً . وفي تهليل يوحنا امتلأت أليصابات , أما مريم فنعلم انها كانت قد أمتلأت حينئذ بالروح وروحها تهلل أيضاً , لأن من لا نستطيع أن ندركه عمل في أمه بطريقة غير مدركة . وأخيراً , امتلأت تلك بعد الحبل , أما هذه فقبل الحبل .

ان الروح القدس يعرف كلامه ولا ينساه قط , والنبوة تتحقق ليس فقط بالأعمال الخيرية , بل بكل ما في التعبيرات من حدة وتحديد , و ثمرة البطن هذه هي التي قال عنها المرتل قديماً : " البنون ميراث من عند الرب , ثمرة البطن أجرة " (مز 127: 3)

فميراث الرب هم الأبناء أجرة الثمرة الخارجة من بطن مريم . ان الرب هو الثمرة , والزهرة هي مريم التي حسناً تنبأ عنها إشعياء قائلاً : " ويخرج قضيب من جذع يسى , وينبت غصن من أصوله " (اش 11 : 1) . فالجذع هو جنس اليهود , والغصن هو مريم , وثمرة مريم هو المسيح , أفضل ثمرة لشجرة صالحة . ونحن على قدر تقدمنا في الفضيلة , فهو يزهر ويثمر فينا الأن نحن المجددين بقيامته .

وليس عدم المعرفة هو الذي دفع اليصابات لتسال مريم هذا السؤال : " فمن اين لي هذا أن تأتي ام ربي إلي " (لو 1 : 43) . فهي تعلم جيداً أن هناك نعمة وعمل الروح القدس وراء تحية أم الرب لأم النبي , وذلك لصالح ابنها . ولكنها تقر أن ذلك ليس نتيجة استحقاق بشري , بل بالنعمة الإلهية , فكأنما هي تقول : ما هذه السعادة التي تدركني أن تأتي أم ربي إلي ! إني أقر أني لست شيئاً... فكيف أعطى ذلك وبأي حق , ولأية أعمال , ولأية جدارة ؟ فليس ذلك أمراً عادياً بين النساء أن تأتي أم ربي إلى . إني أحس بالمعجزة وأقر بالسر: إن أم الرب حملت الكلمة ملء الله . فها أنتم ترون أن مريم آمنت بالسر ولم تشك , وبذا اقتنت ثمرة الايمان .

"طوبى للتي آمنت أن يتم ما قيل لها من قبل الرب " ، وأنتم أيضاً مطوبون يامن سمعتم وآمنتم , لأن كل نفس تؤمن تحبل وتلد كلمة الله وتعرف أعماله . لأنه وإن لم يكن هناك سوى أم واحدة للمسيح حسب الجسد , فإن المسيح بالايمان هو ثمرة الجميع , لأن كل نفس تقبل كلمة الله اذا ما كانت بلا عيب متحررة من الرذائل , تحفظ العفة بنقاوة كاملة . فكل نفس تبلغ إلى هذه الحالة تعظم الرب , كما عظمت مريم الرب , وكما

تهلل روحها بالله مخلصها . هكذا يتعظم الرب بالحقيقة كما هو مكتوب : " عظموا الرب معي " (مز34: 3) . ليس أن كلامنا البشري يمكن أن يضيف لعظمته شيئاً , بل لأنه يتعظم فينا , لأن المسيح : "صورة الله " (2كو4: 4 , كو 1: 15) . وعلى ذلك , فالنفس التي خلقها الله على مثال صورته , تعظم صورة الله هذه عندما تعمل البر والصلاح . وبذلك أيضاً فهي بتعظيمها لها تشارك بصورة ما في عظمته وترتفع فيه , ويبدو أنها تبرز هذه الصورة بالألوان الزاهية التي للأعمال الصالحة وتزينها بالفضيلة " .